مدخل

أواخر أيلول/سبتمبر 2000، قبل تنصيبه بأقل من شهر، كان الرئيس المنتخب جورج دبليو بوش لا يزال يناقش هوية من ينبغي أن يكون وزير دفاعه. عضو مجلس الشيوخ السابق دان كوتس. جمهوري من انديانا سبق له أن كان عضواً في لجنة القوات المسلحة، كان في صدر قائمة بوش ومتمتعاً بدعم قاعدته المحافظة. غير أن كوتس لم يترك انطباعاً قوياً في لقائه بوش وديك تشيني، الذي كان يتولى رئاسة فريق الانتقال إلى الحكومة الجديدة. لم يكن كوتس يعرف كبار الجنرالات إلا عن بُعد وكان فاتراً بالنسبة إلى نظام الدفاع الصاروخي القومي الذي كان بوش قد وعد به في الحملة الانتخابية. لم يكن قد سبق له أن تولى إدارة أي منظمة كبيرة وأقر بأنه سيكون بحاجة إلى معاون قوي، صاحب تجارب في البنتاغون.

غير مناسب. كان بوش بحاجة إلى شخص يكون قادراً ليس فقط على انتزاع الأمور من براثن الجنرالات بل وصاحب وزن يضاهي أوزان باقي أعضاء فريق الأمن القومي لديه. سبق لتشيني أن كان وزيراً للدفاع في عهد والد بوش؛ سبق لكولن باول، اختيار بوش لشغل منصب وزارة الخارجية، أن كان رئيساً لهيئة رؤساء الأركان ومستشاراً للأمن القومي عند ريغان. كان بحاجة إلى وزير دفاع أطول قامة، أكثر خشونة وأوفر خبرة.

ماذا عن دونالد رمسفلد؟ قال تشيني. كان ذلك حلماً تكرر ثانية بالنسبة إلى رمسفلد، رئيس تشيني ومعلمه القديم البالغ 68 عاماً من العمر. سبق له أن شغل منصب وزارة الدفاع مرة من قبل، في ظل حكم الرئيس فورد بين عامي 1975 و1977. وقد كان طياراً في سلاح البحرية في خمسينيات القرن العشرين وانتُخب أربع مرات لعضوية الكونغرس، شغل منصب رئيس جهاز عاملي البيت الأبيض في عهد فورد، كما كان مديراً تنفيذياً لاثنتين من شركات فورتشن الـ 500، كانا قد تطرقا إلى احتمال جعل رمسفلد مديراً لوكالة الاستخبارات المركزية (CIA)، غير أن ذلك ربما لم يكن اختياراً موقتاً. قد يكونان بحاجة إلى استعادته إلى الدفاع.

قبل الميلاد بثلاثة أيام عقد بوش، تشيني ورمسفلد اجتماعاً مطولاً على الغداء. بدا رمسفلد المراوغ، المستفز، الواثق بنفسه مع قدرٍ من الحدة الصبيانية في نصف سنّه الحقيقية فقط. اقتحم الاجتماع مثل إعصار، مفعماً دهشة ورؤيا. نعم، كان يعرف البنتاغون؛ حديثاً، كان قد تولى رئاسة لجان خاصة باستخدام الفضاء وتهديد الصواريخ البالستية. بدا مطّلعاً على كل شيء.

فوجئ بوش بهذا الانطباع القوي. بعد ذلك، تحدث مع رئيس جهاز عاملي البيت الأبيض الجديد أندرو اتش كارد، الابن.

كان بوش قد اختار كارد، ابن الثالثة والخمسين، لأن أباه قال: لا أحد يضاهيه إخلاصاً. من قبل، في 1988، كان كارد قد اضطلع بدورٍ مهم في فوز الأب في انتخابات نيوهامبشاير التمهيدية الحاسمة. لاحقاً، كان كارد قد شغل منصب نائب رئيس جهاز عاملي البيت الأبيض ووزارة النقل.

بعد انتخابات الـ 2000، اعتقد كارد باحتمال أن يُطلب منه تولي إدارة الفريق الانتقالي. غير أن بوش قال له: "لا، أنا لا أحدثك عن ذلك المنصب. أنا أكلمك عن الوظيفة الكبيرة". أصر كارد على ضرورة قيام علاقة صريحة، فريدة، عارضاً شروطه كي يصبح رئيساً للجهاز. إمكانية الوصول إلى جميع الناس، الاجتماعات والمعلومات. ثم أضاف: "لا أستطيع أن أكون صديقاً أيضاً".

"بالطبع،" رد بوش.

في تشرين الثاني/نوفمبر قبل أسابيع من قيام المحكمة العليا بحسم الانتخاب لمصلحته، بادر بوش إلى إعلان تعيين كارد، قاصداً توجيه رسالة بالغة القوة: تقول: إضافة إلى نائب الرئيس سيكون آندي كارد الرجل الأول بين أنداد في بيت بوش الأبيض، وعن سائر الأمور، في جميع الأوقات.

فاتح بوش كارد قائلاً: بدا كوتس أشبه برجل طيب، غير أن الفرق بينه وبين رمسفلد كان مذهلاً. فالأخير فاهم لما يعنيه التحويل العسكري - جعل الأسلحة والوحدات أكثر حركة، أسرع، ذات تكنولوجيا عالية وأشد فتكاً. ترك انطباعاً قوياً جداً. قال بوش. هذا هو ما يجب فعله. **هذا هو أسلوب العمل المطلوب. هؤلاء هم الناس الذين ينبغي أن يُستعان بأمثالهم.** بدا وكأنه كان قد اتخذ قراره. كان رمسفلد في

الثالثة والأربعين من العمر حين تولى المنصب قبل ربع قرن. بدا كما لو كان يقول: "أعتقد أن هناك أشياء يطيب لي أن أنجزها".

مسألة أخرى ناقشها بوش وكارد. لم يكن كل من رمسفلد ووالد بوش يستطيع أن يصيق الآخر. كلاهما كانا نجمي الحزب الجمهوري الساطعين في سبعينيات القرن العشرين، وكانت ثمة خصومة متبقية بينهما. كان بوش الأب يرى رمسفلد متعجرفاً، معتداً بنفسه، مفرط الثقة بالذات وماكيافيلياً. كان مؤمناً بأن رمسفلد كان في 1975 قد ناور وأقنع الرئيس فورد باختياره لرئاسة وكالة الاستخبارات المركزية. وهذه الأخيرة ربما كانت في الحضيض أواسط السبعينيات. ومع أن الأمور ما لبثت أن اتخذت مساراً مغايراً، فإن بوش الأب لم يثق برمسفلد. كذلك لم يقصِّر الأخير في إطلاق تعليقات خاصة بشعة زاعماً أن بوش كان من عيار خفيف، مدير وكالة استخبارات مركزية ضعيف زمن الحرب الباردة أخفق في تقدير حجم التهديد السوفيتي، والعوبة بيد وزير الخارجية هنري كيسنجر.

استطاع كارد أن يرى أن تغلُّبه على ارتيابه من رمسفلد ضاعف من دهشة الرئيس المنتخب. لعلها مناسبة لإثبات خطأ أبيه. وكان رمسفلد أنموذجياً بالنسبة إلى تشيني.

كان تشيني مكلفاً بالبحث عن نظير يجاري بوش. وقد قال إنه كان يبحث عن شخص واسع الخبرة. من شأن أي مرشح أنموذجي أن يكون عارفاً بكل من البيت الأبيض والكونغرس، سبق له أن شغل مناصب منتخبة، سبق له أن أدار مؤسسة تنفيذية اتحادية كبيرة. كان يتعين عليه أيضاً ألا يكون مجرد مخلوق واشنطني. كان لا بد له من أن يكون صاحب تجارب في عالم الواقع، ربما عالم الشركات. مدير تنفيذي، مثلاً. ربما لم يكن مفاجئاً أن تشيني الذي سبق له أن كان عضواً في الكونغرس، رئيساً لجهاز عملي البيت الأبيض، وزيراً للدفاع ومديراً تنفيذياً لإحدى شركات فورتشن الـ 500، كان سيقوّم تجربته ومثاله بوصفهما الصفتين المثاليتين لأي مرشح بعده. التقط بوش فحوى الرسالة واختار تشيني قريناً له في الحملة. وها هو ذا تشيني يعيد الكرة الآن. كان قد وضع أنموذجاً لوزير الدفاع عاكساً صورته المكثفة. كان تشيني مؤمناً بأن بوش بد بحاجة إلى تشيني آخر في البنتاغون. وما من أحد كان يشبه تشيني أكثر من رمسفلد. أقله على الورق، بدا الرجلان مثاليين تقريباً.

قام بوش بإبلاغ كارد برغبته في تسمية رمسفلد. كان تشيني قد اختير بسبب ميزاته الإيجابية على صعيد الأمن القومي. لقد كان خبيراً، وكان هذا قراراً متطلباً

خبرة. ومع ذلك ظل بوش يتساءل ويفاتح كارد على انفراد حول مطبات معينة راغباً في معرفة ما إذا كانت ثمة أشياء لم يرها. كانت لدى والدي هواجس قوية آخر المطاف.

ثم راح يسأل: "هل نحن أمام باب مسحور؟"

شريط سينمائي عن رئاسة جورج دبليو بوش قد يعرض في المكتب البيضوي بعد شهر واحد، في السادس والعشرين من كانون الثاني/ يناير 2001، بعد حفل التنصيب بستة أيام، حين أقسم رمسفلد يمين تولي وزارة الدفاع. نجح مصور البيت الأبيض في التقاط المشهد. يرتدي رمسفلد بدلة مقلّمة ناعمة الخطوط، ويضع يده اليسرى على الإنجيل الذي تحمله زوجه جويس البالغة 46 سنة من العمر. يده اليمنى مرفوعة. بوتن واقف وكأنه في حالة استعداد، مادأ رأسه إلى الأمام، عيناه مسددتان بحدة باتجاه اليسار، متركزتان بحدة على رمسفلد. أما تشيني فواقف مبتعداً بعض الشيء، راسماً ابتسامته المميزة على وجهه. الرجل في لجلباب الأسود الذي يتولى قيادة عملية أداء القسم هو القاضي لورنس إتش سلبرمن، أحد أصدقاء كل من رمسفلد وتشيني الحميمين منذ أيام فورد حين كان نائب مدعٍ عام ثم نائباً عاماً انتقالياً. إنه يوم بارد، جاف، والأغصان الجرداء للأشجار في الخارج يمكن أن تُرى عبر نوافذ المكتب البيضوي.

تثبّتُ صورةُ البيت الأبيض لحظة تجسر بين الماضي والمستقبل. فيما مضى، أيام رئاسة فورد، غداة ووترغيت - تبرئة نكسون، سقوط سايغون - كان تشيني ورمسفلد يعملان يومياً تقريباً في المكتب البيضوي نفسه حيث وقفا مرة أخرى. أما الرجل الجديد في الصورة، بوش، وهو أصغر من تشيني بخمس سنوات ومن رمسفلد بنحو 14 سنة، فقد كان طالباً في معهد الأعمال بجامعة هارفارد. جاء إلى الرئاسة برصيد أقل من أي رئيس جديد منذ ودرو ولسن في 1913 على صعيد التجربة والخبرة.

عدد كبير من مجايلي رمسفلد الذي ناهز السبعين من العمر كانوا قد تقاعدوا، أما هو فكان الآن واقفاً متحفزاً، مستعداً لخوض السباق مرةً أخرى. كان يشبه شخصية رئيس الاستخبارات البريطاني في الحرب الباردة: جورج سملي، ذلك الرجل الذي "كان قد مُنح، في خريف العمر، فرصة للعودة إلى سلسلة معارك حُرم من خوضها في وقتها ليخوضها من جديد آخر المطاف" في إحدى روايات الجاسوسية للكاتب البريطاني جون لو كارّي(*).

(*) جون لو كاري: هو الاسم المستعار للكاتب البريطاني ديفدجون مور كورنول (من مواليد 1931).